

جدلية القمع والإبداع في تراث العصر الأموي

د. فاطمة السويدي *

مقدمة:

تمر الأمم بفترات تشعر فيها بالأزمة، وبحاجتها إلى البحث عن الهوية، وإلى مراجعة الذات.. وبخاصة. وأن العولمة تمتد بأشكالها الأميبية المختلفة -رضينا أم أبينا- لتصبغ العالم بلون واحد.. فهل نلجأ إلى التراث في محاولة انكفائية، أم نذوب في الآخر لنصبح هامشاً حضارياً له؟.

متى يمكن أن نستفيد من التراث ليصبح طاقة فاعلة وفعالة.. وليس ركاماً كما قد يظن الكثيرون؟.

وذلك لكشف الآلية التي تحرك العلاقة بين المعارضة وجماعاتها الضاغطة، اليوم، وبين سلطة الدولة. وفيما إذا كانت هي نفس الآلية التي تحكمتم في صراعات الدولة وخصومها في ذلك العصر.

هذا البحث يحاول أن ينفذ إلى عمق الأسباب، لدراسة الاتجاهات والعناصر التي كونت تاريخ هذه الأمة، ومحاولة لفهم الأسس والظروف والمقومات التي أدت إلى قيامها في الواقع وفي الفكر، متمضنة محاولة للرد على بعض من يصم الفكر العربي بالتخلف والجمود.

هذه المغامرة قد تفضي بنا إلى دراسة مسحية شاملة لهذا التاريخ.. وهذه لها مخاطرها وعيوبها... ولكنها محاولة أولية، أعد بتعميقها في بحوث آتية.

* مدرس الأدب العربي بكلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر.

إنها محاولة لإثارة بعض التساؤلات . . هل الأمة العربية الإسلامية أمة مبدعة ؟ . . هل العقل العربي أسهم في خلق الحضارة الإسلامية ؟ . . ما موقف الثقافة العربية من الآخر ؟ . . وقبل ذلك ما هو الإبداع ؟ . . أنكتفي بالتعريفات الجاهزة التي أصطنعها علماء النفس والاجتماع بمشاربهم الأيدلوجية المختلفة ؟ هل الإبداع هو إبداع الفرد ، أم يمكن أن يكون إبداعاً جماعياً ؟ . . هل الحرية هي الأرض الخصبة التي تزهر بالإبداع . . أم أن الاضطهاد والمعاناة جذيرة بخلق إبداع متميز ؟ . .

لنتفق أولاً على أن المبدع بالمعنى الفكري ، هو الإنسان المفارق للجماعة التقليدية ، والذي ينفصل عنها انفصلاً رمزياً ، لكي يتمكن من تحديد سلبياتها ، ولكنه يتصل بها في النسق الثقافي العام ، لكي يكون قادراً على فهمه من أجل تغييره ، فالمبدع فاعل اجتماعي ، يهدف إلى التغيير الشامل في الحياة .

ونطلق أيضاً من حقيقة واضحة ، وهي أن الأمة العربية أمة مبدعة . . فلم يكن العربي في يوم من الأيام بعيداً عن الإبداع ، فقد نشأ في ثقافة تحرص على الإبداع الفني ، وتحثي بالتميز المتفوق ، وتقيم الاحتفالات والمهرجانات للمتأففين المبدعين . عاش العربي حضارة فطرية طبيعية يخضع فيها لعوامل الطبيعة ، ولا يخضع للأنظمة المدنية التي تسم أفرادها بالانضباط ، بل وأحياناً — في بعض الحضارات — تسمهم بالخنوع . هذه الظروف شكلت ثقافة العقل العربي بمفاهيم خاصة كالاستقلال الفردي ، والالتزام الجماعي ، للقبيلة .

كما أن التعددية السكانية الضخمة ، دفع به إلى الحرص على الفرد والمحافظة على العرقية ، ومن ثم الإحساس بالتميز ، وهذا ما نشعره من الاهتمام بالأنساب ، وتكوين العلوم الخاصة به ، بل لقد تعداه إلى تتبع أنساب الحيوان .

لقد كان للعوامل البيئية في شبه الجزيرة ، والتي تجمع الاضداد بين الخصب والمحل ، وبين البرد الذي يعقد ذنب الكلب ، والحر الذي يذيب دماغ الضب يد في صنع سمات "الشخصية" العربية من هذا التضاد ، فالبدوي لا يعرف القصد ، لا في الخير ، ولا في الشر ، مبالغ في عداوته ، مبالغ في محبته ، لا يتورع عن الغدر ، ولكنه إذا عاهد على الوفاء بذل حياته في سبيل عهده ، يغزو وينهب حتى يكاد يفقد حياته ، ثم يوزع ما يغنمه على سواه (١) .

شخصية كهذه جبلت على صفات الشجاعة ، والجرأة ، والتحدي ، والكبرياء ، لا يمكن أن تقبل ضيماً ، أو تتهاون في مقدراتها ، وهذا ما نجده متمثلاً في حقبة صدر الإسلام ، ففي تلك الفترة ، قد نجد إجابة مفهومة لما يدور في حاضرنا .

حقبة صدر الإسلام هي التي حددت صيغ العلاقات بين المجتمع والسلطة . أما الخلافة الإسلامية ، كمؤسسة فإنها مدار الصراع منذ ذلك الحين حتى وقتنا الحاضر .

الصراع والقمع ظاهرة تصف بالشمول والتنوع . وعلاقتها بالإبداع يتطلب دراسة التيارات السياسية ، والفكرية ، والذهنية ، والاجتماعية . وعلى الرغم من تدخل هذه العناصر فإنه يمكن تقسيم هذا البحث إلى ثلاثة أقسام . تصور مدى تفاعل الأفراد مع معطيات الواقع ، وردود أفعالهم للتحدية والمطالبة بالتغيير ، ومدى نجاحهم في الصبورة والمهدف المستقبلي لتلك المرحلة من مراحل التاريخ .

ويمكن النظر إلى أفعالهم واتجاههم باعتبارها أفعالاً واتجاهات إبداعية بمعنى أو بآخر . فالإبداع ليس إلا استجابة غير مألوفة لواقع مألوف .

ويمكن تناول هذه الاستجابات بأبعادها الإبداعية التالية :

أولاً : البعد السياسي الثوري : وهذه هي استجابات الجماعات التي تحمل مشروعاً لنظام بديل ، وأهمها الخوارج والشيعة .

ثانياً : البعد الثقافي الفكري : وهذه استجابات الجماعات التي حملت على كاهلها العبء التنويري والتأطيري لفلسفة المعارضة السياسية .

ثالثاً : البعد الطبقي : وهذه استجابة طبقة المهمشين ومن أهمها الموالى والعبيد .

أولاً : البعد السياسي الثوري :

وبدور هذا المحور حول قضية الخلافة وجذورها ، ، وهي أول مواجهة حقيقية بين المفاهيم الإسلامية ، والثقافة العربية ، وفيها ظهر العنف واضحاً ، ولم تحسم آثاره في التاريخ الإسلامي بعد .

واجتماع السقيفة (٢) بين لنا طموح الرجال ومطالبهم السياسية ، ، وحق بعد أن هدأت النفوس على مضض ، وجد عمر من يقول له = حين استخلفه أبو بكر = " أمرته عام أول ، وأمرك العام !! " .

وظلت مؤسسة الخلافة تتعرض لهزات عنيفة ، وبشكل مستمر منذ أن شارك الموالى في الصراع بقتل عمر بن الخطاب (٣) وكانت لهم أيضاً اليد الطولى في التحريض (٤) لقتل عثمان بن عفان ، والذي فجر بمقتله القضية بشكل صريح ، ،

وهكذا تدفقت دماء المسلمين في نزاعات مسلحة ، تحت إرهاب سياسي جديد لم يعهده العرب من قبل ، وسارع المجتمع يبحث عن البدائل السياسية بالانضمام إلى الأحزاب المعارضة ، ، كل بما يؤمن ، ويصادف هوى في نفسه ،

هذا التنافر بين الشخص والدولة ، هو ما دفع بالشخصيات الطموحة القيادية إلى البحث عن طريق انفرادي ، يعمل بشكل فاعل في التحولات السياسية ، والاجتماعية ، بمساندة الجماعات المتطلعة للتغيير ،

ومهما كانت القوة أداة لدى السلطة تمارس بها القهر والضغط فإن لدى الجماهير وسائل لرفضه ، ، وهذه الجماعات استطاعت أن تعبر عن غضبها بشكل واضح وملمس ، ، وكان من أهم هذه الفئات المؤثرة والمنظمة ، أحزاب المعارضة : الخوارج والشيعة ، أو ما يحسده الحزب الديمقراطي ، والحزب الشيوعي ، بالمفاهيم السياسية الاجتماعية المعاصرة ،

٢- انظر تفصيل الأحداث : الطبري : تاريخ الأمم والملوك أحداث سنة ١١ = ٦٠٤/٣

٣- ابن قتيبة الإيمانية والسياسة : تحقيق طه محمد الزين ٢/١ مؤسسة الحلبي مصر ١٩٦٧ .

٤- انظر تاريخ الطبري سنة ٢٣ = ١٩١/٤ .

٥- تاريخ الطبري سنة ٣٥ = ٣٤٠/٤ .

الخوارج ، عنف الديمقراطية :-

أدت الممارسات السياسية إلى تفكك واضح في المجتمع الإسلامي ، وانقسام في الأفكار والمعاني ، ورافق ذلك أيضاً انقسام طبقي اقتصادي حاد ، وهذا ما يظهر واضحاً خلال السنوات الأخيرة من خلافة عثمان بن عفان ، والخلافة القصيرة لعلي بن أبي طالب ، تفرق بعدها المسلمون إلى فرق متعارضة ، متحاربة لا بسبب من أسباب الدين ، بل لأسباب الدنيا ، أي الحكم ومغانمه ، وهذا هو المنشأ الحقيقي لثورة الخوارج .

أما قضية التحكيم فهي أوهي الأسباب في تفسير نشأة الخوارج كما يقول فلهوزن (٥) .
لقد كانت الكفاءة هي شرط الخلافة لدى الخوارج ، وحق لكل مسلم ومسلمة أيّاً كان جنسه أو لونه ، وتمسكوا بمبدأ الاختيار من الشعب ، وخلع الأمام الجائر ، وكفروا كل من لا يرى برأيهم . . . إلا أن هذا المبدأ البراق سقط في أول اختبار عملي ، فمما أن استشارهم على كرم الله وجهه في ترشيح عبدالله بن عباس للتحكيم ، حتى قال زعيمهم — بعد ذلك — الأشعث بن قيس الكندي " لا يحكم فيها مضران حتى تقوم الساعة " (٦) .

هذا الموقف يبين بوضوح أن العربي لم يستطع أن ينسلخ من جلده وعصبيته القبلية التي يلجأ إليها للتغلب على أزماته .

استطاع الخوارج تنظيم تجمعاتهم ، وحاولوا قلب نظام الدولة باستغلالهم لقضية التحكيم ، كدعوة دينية في ظاهرها ، وكحزب سياسي في جوهره . . . وعمدت قيادات هذا الحزب إلى خلع البيعة صراحة ، ومن غير مواربه ، وحاربوا المخالفين لهم على الارتداد عن الدين الإسلامي في كل مكان .

واستطاعت قيادات هذا الحزب ومبدعوه من شعراء وخطباء ، أن تلهب مشاعر العامة باستحثاثهم على قلب نظام الحكم ، وتغيير المجتمع بالقوة والتحدي ، فكان لها أبلغ الأثر في جذب الجماهير ، التي تحلم بواقع سياسي مثالي ، تنعكس آثاره على واقعهم الاقتصادي المختل

٥- يوليوس فلهوزن : أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام : الخوارج والشعبة ترجمة عبدالرحمن بدوي

ص ١٣ وبعدها .

٦- نصر بن مزاحم : وقعة صفين تحقيق عبدالسلام هارون ص ٥٠٠ ط ٣ مكتبة الخانجي مصر ١٩٨١ .

واستطاعت فرق الخوارج أن تكون دولة داخل جسم الدولة الأم ، وذلك يظهر واضحاً باستقلالهم الاقتصادي ، فقد قام قطري بن الفجاءة بسك النقود باسمه ، وقام ثائر آخر ، هو الضحاك عبدالله بن عمر بسك الدراهم الخارجية في الكوفة ، ووضع عليها شعار الخوارج "لا حكم إلا لله" (٧) .

ولم يجهد الخارجي نفسه بالحوار والإقناع ، بل كانت القوة المتسلطة هي طريق التغيير المرتقب ، فكانوا يندفعون إلى الموت اندفاعاً ، لا تستطيع له تفسيراً . . . وكأن الموت أصبح هدفاً . يذكر أحدهم (٨) .

ومسوم للموت يركب رده	بين القواضب والقنا الخطار
يدنو وترفعه الريح كأنه	شلو تنشب في مخالب ضار
فئوى صريعاً ، والريح تنوشه	إن الشرارة قصيرة الأعمار

يقول قيس النوري : إن المجتمع عندما يضطرب نتيجة أزمة من الأزمات ، أو بسبب انتقاله نفعية عابرة ، فإنه يصبح بصورة وقتية غير قادر على ممارسة تأثيره ، وهذا ما يسبب الارتفاع الفجائي في معدلات وقوع الانتحار (٩) . فهل كانت جماعة الخوارج تعتمد في حروبها مع السلطة إلى حالة من الانتحار الجماعي ؟ أم أنها جماعة تحاول أن تزرع الأمل للأجيال المقبلة بعالم سياسي مثالي ؟ .

— أظن — أن تحدي الموت وقهره يحمل في النهاية ، معنى الانتصار على القهر والرضوخ فعمد الخارجي إلى قهر الموت في عملية تحرير نفسه .

لقد كان العنف رمزاً للحياة ، والمواجهة المسلحة تمده بالإحساس بالقوة ، التي تصبح رمزاً للحياة نفسها ، فمن خلال السلاح يحاول أن يقلب الأدوار ، أن يتحول من فرد أو جماعة صغيرة مهمشة إلى فاعل ومؤثر حقيقي ، باستخدام السلاح آلة العنف ، والتي تحول الضعف إلى قوة ، وبها تتحول الفئة الصغيرة إلى جماعة مرهوبة ، وهذا هو محور أشعار الخوارج :

٧- محمد أبو الفرج العشي : النقود العربية الإسلامية ص ٦٠ ، ٢١٤ ، قطر ١٩٨٤ .

٨- ناهض محمد معروف : ديوان الخوارج ص ١٤ ، دار المسيرة بيروت ١٩٨٣ .

٩- قيس النوري : الاختراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً ص ٢٥ مجلة عالم الفكر مجلد ١٠ العدد الأول ١٩٧٩ — الكويت

هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصروننا

وهو مصداق لقوله تعالى : " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . والله مع الصابرين " (١٠) .

ومن هنا كانت مباهاة الخارجي باستعراض سلاحه ، استعراض كيانه الجديد الذي قضى به نهائياً على الرضوخ : -

— نقاتلكم لكي تلتزموا الحق وحده ونضربكم حتى يكون لنا الحكم (١١)

— من كان يكره أن يلقي منيته فالموت أشهى إلى قلبي من العسل (١٢)

فلا التقدم في الهيجاء يعجلني ولا الحذر ينحني من الأجل

فهل تستطيع هذه المؤشرات التراثية ، أن تقدم لنا تفسيراً لما يحدث في مجتمعاتنا اليوم ، وهي التي تفجعتنا بعض جماعاتها بقتل المسلمين تحت تبريرات دينية ١١٩ .

الشيعة : الثورة المستمرة

إن أزمة الانسان العربي في تلك الحقبة ، أزمة سياسية — اجتماعية ، تلخص في تحديد مفهوم علاقة المواطن بالدولة ، فقد وجد نفسه مسلوب الإرادة وحرية الرأي أمام النظام السياسي المسيطر ، فكانت معاناته تتركز في تنازل الأفراد عن حقوقهم ، التي أعطاها لهم الإسلام ، وحضهم على التمسك بها للنظام السياسي السائد ، والذي يقف في معظم الأحيان موقف المصلحة الذاتية لسيادة سلطانه ، ولا يتورع عن سحق معارضيه ، فهل يمكن أن يشق الإبداع طريقاً في مثل هذا الضغط الذي مارسته الدولة على أفرادها ؟ .

لقد كانت سياسة تكميم الأفواه دافعاً إلى تطور الشعور بالخيبة والألم إلى كراهية ورفض ، ثم إلى معارضة شديدة مسلحة في كثير من الأحيان . . . والدراسة اللغوية للشعر الأموي تمد الباحث بأثر إبداعي واضح يوحي بأن هناك شيئاً مرغوباً قد ضاع أو فقد ولا بد من استعادته (١٣) .

١٠- سورة البقرة / ٢٤٩ .

١١- ديوان الخوارج : ص ٨٧ .

١٢- المصدر السابق : ص ٣٢ .

١٣- أنظر فاطمة السويدي : الاغتراب في الشعر الأموي ، مكتبة مدبولي — القاهرة — ١٩٩٧ .

هذا التشتت السياسي والنفسي ، آلت الخلافة إلى الملكية ، ولم يبق من البيعة إلا اسمها ولم يشارك المسلمون في اختيار الخليفة إلا من خلال بيعات مشبوهة انتزعتها الدولة بسياساتي التهيب والترغيب .

الحزب الشيعي ، هو حزب ثيوقراطي ، ذي مرجعيات لاهوتية في المطالبة بحق الخلافة . انتقلت فكرة موالاة علي ومناصرته إلى مذهب ديني ، تقوم قضية الخلافة مقام العمود الفقري منه ، مصطلح عليها بـ (الإمامة) ، وصارع الشيعة من خالفهم صراعاً مريراً ، عبّر عنه الشهرستاني بقوله : " ما سُلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية ، مثل ما سُلَّ على الإمامة في كل مكان " (١٤) .

ظلت وما زالت الخلافة والإمامة ، مسألة تطول فيها الخصومة بين الشيعة ، وأهل السنة ، وتعدد الأدلة في هذا المجال النقلي ، ولن يستطيع الفصل بينهما حتى أولئك الذين أوتوا علماً واسعاً بفنون النقل ، وأصول الجرح والتعديل في الأحاديث ، ذلك لأن لكل من المعسكرين كتبه ، ورجاله ، وطرقه ، وأسانيده ، وعدم الثقة كان متبادلاً بينهم منذ القلم (١٥) . وفي ظل تزايد أتباع الشيعة والموالاة لآل البيت ، اتخذ خلفاء بني أمية أشد الولاء قسوة وبطشاً وتعتاً في التعامل مع هذه الفئة المعارضة ، وباستعراض موجز لبعض مواقفهم تبين الوضع السائد في تلك الفترة :-

فعن ابن الجوزي في المنتظم : أن زياداً لما حصبه أهل الكوفة (معقل الشيعة) وهو يخطب على المنبر قطع أيدي ثمانين منهم وعرضهم على البراءة من علي عليه السلام أو تخريب دورهم (١٦) .

وتكثر الروايات في كيفية تتبع العلويين والتككيل بهم . وتشكو سودة بنت عمارة الهمدانية من قسوة ولاية معاوية : " . . . ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ،

١٤- الشهرستاني : الملل والنحل تحقيق محمد سيد كيلاني ٢٤/١ دار المعرفة بيروت .

١٥- أنظر : السيد حسن الأمين : أحيان الشيعة ج١

عبدالحسن الأمين : الغدير ج٣

الحادي حر : أضواء على الشيعة ص ٢٦ .

١٦- ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : تحقيق محمد عبدالقادر عطا ٢٢٧/٥ بيروت ١٩٩٢ .

الطبري : أحداث سنة ٥٠ ، ٢٣٥/٥ ط دار المعارف .

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٣٣/٣ ط ٦ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٦ .

ويسيطر سلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيصة
ويسألنا الجلييلة ٠٠ " (١٧) .

وموقف آخر يورده ابن عساكر في تاريخه ، وهو كتاب زياد بن أبيه للحسن
رضي الله عنه رداً على كتابه " من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة : أما بعد فقد
أتاني كتابك تبدأ فيه بنفسك قبلي ، وأنت طالب حاجة وأنا سلطان ، وأنت سوقه كسبت إليّ
في فاسق لا يؤبه به ، وشر من ذلك توليه أباك وإياك ، وقد علمت أنك أدنيته إقامة منك
على سوء الرأي ورضى منك بذلك ، ولم الله لا تسبقني به ، ولو كان بين جلدك
ولحمك ، وأن نلت بعضك فغير رفيق بك ، ولا مرع عليك ، فإن أحب لحم إلي أن
أكل من اللحم الذي أنت منه ٠٠٠ " (١٨) .

وهكذا تفنن الأمويون في تحطيم معنويات العلويين بشق الوسائل ، إمعاناً في الإذلال
والمهانة ، حتى إذا حلت مأساة كربلاء ، فجعت الشيعة بأبشع كوارث التاريخ " فكانت المولد
الحقيقي لحركة الشيعة (١٩) " ، أو كما يقول بروكلمان أن ميتة الشهداء التي ماتها الحسين ، والتي
لم يكن لها أي أثر سياسي ، قد عجلت في التطور الديني للشيعة (٢٠) .

هنا خطت الشيعة خطوة حقيقة للتعبير ، وظهرت حالات التمرد
والعصيان (٢١) في شكل ثورة التوابين ، التي مهد لها الشعراء الطريق باستحثاث الهمم ،
والتقريع واللوم لهذا المجتمع المستكين :

فيا أمة تاهت وضلت سفاهة أنيسو فأرضوا الواحد المتعاليا (٢٢)
ويقول آخر :

ألم تر أن الأرض أضحت مريضة لفقد حسين والبلاد اقشعرت
ويقول آخر :

وعند يزيد قطرة من دمائنا سنحزبهم يوماً لها حيث حلت (٢٣)

١٧- ابن عسكريه : العقد الفريد تحقيق أحمد أمين ١٠٣/٢ ، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٢ .

١٨- أحمد زكي صفوت : جمهره رسائل العرب ٣٧/٢ ط ٢ مطبعة الحلبي القاهرة ١٩٧١ .

١٩- حسين مؤنس : تاريخ قرين ص ٦٥١ .

٢٠- بروكلمان : تاريخ الشعوب العربية ١٥٤/١ .

٢١- الطبري أحداث سنة ٦٠ .

٢٢- كاظم الظواهري : المكلمات من صور الشعر السياسي ص ٨٨ دار الصحوة القاهرة ١٩٨٧ .

٢٣- ديوان أبي دهل : تحقيق عبدالعظيم عبدالحسن ص ٦٠ .

ويقول متوعداً : -

فأقسم لا تنفك نفسي جزوعة وعيني سفوحاً لا يملّ سجومها
حياتي أو تلقى أمية وقعة يذل لها حتى المات قرومها (٢٤)

وهكذا تكاتف المبدعون ، الشعراء والثوار ، في رفع معنويات الشيعة المنكسرة ، وعبروا — بحق — عن حالة التفجر النفسي الداخلي ، وممارسات السلطة وضغوطها الخارجية . . . ولكن جاءت ثورة التوابين بالفشل الذريع في موقعة " عين الورد " ٦٧ هـ ، وزادت الدولة من امتهان أحاسيس الشيعة ، بسبب علي كرم الله وجهه على المنابر ، واتخاذها سنة متبعة . . . وهكذا ظلت قريش تقتل قريشاً ، وظلمها أشد مضاضة على النفس الهاشمية . . . وتاريخ آل البيت تاريخ جنائزي حزين . . .

لكن لم يخل الأمر من الثوار السياسيين الذين أسهموا في محاولات التغيير المختلفة ، فالإبداع هو التأثير والتغيير ، وإن كان المفهوم يصبح أشد ضبابية حين يكون الإبداع جماعياً ، وهؤلاء المبدعون يحملون ألوية التفكير الحر الطليعي في محاولات التغيير ، لتعبر عن غضب الجماهير التي تقودها ، وتدفعهم إلى مواجهة السلطة الضاغطة وأدواتها ، فيتحقق الأمن والانتماء المنشود ، ولتحقق للذات القيادية التلذذ بنعيم السلطة والسيطرة . .

إذن لا بد للمعارض السياسي أن يتميز بسمات افتراقية متفردة ، يحدث من خلالها الأثر المطلوب في جماعته ، ومجتمعه ، فهو ليس من الرعاع الذين لا ضابط لهم ، بل يتميز بحظ وافر ، من الذكاء ، والبصيرة ، وحسن الرأي ، وبنزعة قوية من الإحساس بالذات وحب السلطة ، والقدرة القيادية ، فإذا اجتمعت له فنون الثقافة والشعر ، كانت قدرته على التأثير قوية فعالة ، تلهب مشاعر أنصاره من معارضي السلطة ، وتجمعهم حوله قوة مرهوبة الجانب . .

وتتعدد الأمثلة القيادية البارزة في حزب الشيعة ، ولكننا نكتفي بالمختار النقفي كأتمودج بارز يوضح هذه النزعة المتوقدة بحب السلطة والسيطرة ، والتي تبدو بأنها الدافع الأساسي لخوضه غمار حروب مختلفة ، تحت شعارات لم يؤمن بها قط (٢٥) ، وهو خير من يمثل

٢٤- ديوان أبي دهل ص ٨٦ .

٢٥- أنظر موقفه من الحسن بن علي في جهرة رسائل العرب ١١٠/٢ .
البلادي : أنساب الأشراف ٢١٤/٥ منشورات مكتبة المتنبي بغداد .

يمثل الواقع النفسي للإنسان العربي حين قال "إنما أنا رجل من العرب ، رأيت أن ابن الزبير انتزى على الحجاز ، ومروان على الشام ، ونجدة على اليمامة ، فلم أكن دون أحدهم (٢٦) " .

وتأمل موقفه بعد أن لبس العباءة الشيعية ، ومحاولاته المستمرة في جذب أتباع حركة التوابين من قائدها الشيعي سليمان بن صرد الذي وصفه ، أي سليمان بأنه عثمة من العثمة (يابس من الهزال) ، وحفش بال ، ليس بذئ تجربة للأمور ، ولا له علم بالحروب . . .

وتعالى نبرة الأنبا الطموحة إلى المجد وتحقيق السلطة : إني أنا الأمير المأمور ، والأمين المأمون ، وأمير الجيش ، وقاتل الجبارين ، والمنتقم من أعداء الدين . . . (٢٧) .

وليس من شك في أن المختار كان رجلاً ذكياً إلى أبعد الحدود ، وزعيماً شعبياً من الطراز الأول ، وهب مقدرة خارقة على فهم نفسيات الجماهير وكيفية اجتذابهم إليه ، فهو يدرك أن هذا المجتمع يتكون من طبقتين أساسيتين : الأشراف والموالي . . . ويعلم جيداً أن الأشراف يشاركونه الأهواء والمطامع ، ولذلك اتجه إلى التكتل الآخر ، والذي يولف السواد الأعظم من المجتمع ، ولم يتوان الموالي من الانضمام إلى ثورته ، حين أدركوا أنه يهدف إلى مساواتهم بالعرب " وهو الذي جعل لهم نصيباً من الفئء وحملهم على الدواب وصرح فيهم " بأنهم منه وهو منهم" كما يقول الطبري . . . هذا التحول أغضب الأرستقراطية العربية ، فيقول قائلهم : "لقد تأمر علينا هذا الرجل بغير رضا منا ، ولقد أدنى موالينا ، فحملهم على الدواب ، وأعطاهم ، وأطعمهم فيئنا ، ولقد عصتنا عبيدنا . ويقول آخر : "معهم عبيدكم ومواليكم ، وكلمة هؤلاء واحدة ، وعبيدكم ومواليكم أشد حنقاً عليكم من عدوكم ، فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم" (٢٨) .

واستطاعت هذه الشخصية القيادية المنفردة أن تؤثر في العامة بكافة الوسائل والأساليب ، فقد استغل اسم محمد بن الحنفية في دعوته ، وأثر في الموالي بشعارات المساواة ، وألهب أخيلتهم بابتكاراته الجديدة في التأثير ، وقصة الكرسي معروفة في افتتان الناس به ، وهو القائل " أنه كان في بني إسرائيل التابوت فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون .

٢٦- البلاذري : أنساب الأشراف ٢٦١/٥ .

٢٧- الطبري : أحداث سنة ٦٥ ، ٦٠٦/٥ .

٢٨- الطبري : سنة ٦٦ ، ٤٣/٦ ، ٤٥ .

سنة ٦٧ ، ٩٤/٦ ، ٩٧ .

وأن هذا فينا مثل الثابت ٠٠٠" (٢٩) . وهذه الأوهام تلقى هوى في نفوس العامة والموالي الذين ورثوا مثلها الشيء الكثير في جذور حضارتهم المختلفة .

ثورة المختار آلت إلى الفشل ، ولكن من أهم إنجازات هذه الثورة في المجال الاجتماعي — عدا إسهامها السياسي في دكّ قوة الدولة الأموية — أنها فتحت عيون الموالي على الوضع السيئ الذي كانوا فيه ، وأشعرتهم بأنهم قوة لا يستهان بها ، وأنهم يستطيعون أن يهددوا الطبقة العربية التي تتحكم فيهم تهديداً خطيراً ، وأنه أصبح لزاماً عليهم أن يشاركوا في كل ثورة ضد الدولة العربية ، التي أذلّتهم ، وحرمتهم المساواة السياسية والاجتماعية بالعرب (٣٠) .

ومارس الطرف الآخر الإرهاب ، ممارسات إبداعية متنوعة فهذا الحجاج يبين لهم منهجه السياسي " انتضاء السيف ثم لا أغمده في شتاء ولا صيف ، حتى يقيم الله لأمر المؤمنين أودكم ، ويذل به صعبكم (٣١) " ، ويفرض على الناس أنواعاً لم يألفوها من الأحكام العرفية ، فأصدر قراراً بمنع التجمهر : " إياي وهذه الزارفات ، لا يركن الرجل منكم إلا وحده (٣٢) . وقراراً آخر بمنع الشائعات " فإياكم . وقال وقيل ، وما يكون وما هو كائن (٣٣) " لا تأخذ رحمة بمن خالفها حتى ولو كان شيخاً كبيراً . . . وهكذا أثار الحجاج حياءً من الإرهاب والفرع ، حتى ليذكر بعض الرواة أنه رأى بعض شيوخ الكوفة " يومئ يملأ في زمن الحجاج (٣٤) " . . . وفي مثل هذا الجو المشحون بالرغبة ، نجد أن لفظ الخوف ومتزاداته هو من أكثر الألفاظ دوراناً في المعجم الشعري لشعراء هذه الحقبة ، فالعلاقة قوية وظاهرة بين المشاعر والألفاظ الدالة عليها (٣٥) .

ولم يهادن الفاعلون الوضع السائد ، فأجج الشعراء المبدعون والمتمردون أوار الثورات وتأليب الرأي العام ، وإن تعرضوا لكافة أنواع التعذيب . . . ومن هنا أجازت الشيعة " التقية " ، دفعاً للابتلاء من شدة الحزن (٣٦) .

٢٩- تاريخ الطبري : أحداث سنة ٦٦ ، ٨٢/٦ .

٣٠- يوسف خليف : حياة الشعر في الكوفة ص ٧٤ .

٣١- المسعودي : مروج الذهب ١٣٥/٣ .

٣٢- الطبري : سنة ٧٥ ، ٢٠٤/٦ .

٣٣- المسعودي : مروج الذهب ١٣٥/٣ .

٣٤- يوسف خليف : حياة الشعر في الكوفة ص ٧٩ .

٣٥- فاطمة السويدي : الاغتراب في الشعر الأموي ص ٣٢١ .

٣٦- الأخاني : ٣٣/١٧ دار إحياء التراث العربي .

فهلك ولادة السوء قد طال ملكهم فتحام حمام العناء المطول (٣٧)

هذه الرسالة الثائرة وأمثالها ترفض الرضوخ للواقع السياسي ، وتبحث على التعبير عن رفضه والعمل على تغييره ، تحمل أيضاً متغيرات إبداعية فنية ، فعند هذا الالتزام الواضح بالقضايا السياسية والمذهبية والاجتماعية ، نجد أن الصياغة الفنية تتحول من الصياغة الشعرية المألوفة إلى الصياغة الفكرية ، التي تدافع وتنافخ عن المبدأ الذي آمن به الشاعر ، وجعل من نفسه أداة إعلامية ، تهبش بالدعوة ، وتجذب الرأي العام للاعتقاد به .

ولأول مرة نجد في تاريخ الأدب العربي من يوقف نفسه شعره في سبيل القضية التي آمن بها ، وهامهمات الكهنت من أبرز الأمثلة على ذلك . . وهكذا يفقد حياته هو وغيره من المؤثرين على يد الجند الأموي أو في غياهب السجون الرطبة ، وتعمد الأمثلة والنماذج في هذا المجال .

وكلما تطاولت السجون بالدولة الأموية ، ارتفعت الأصوات وتتابعت الثورات ، فتورة ابن الأشعث تطالب بالانتقام من الأمويين ، ورد الحق إلى نصابه العلوي . .

عبدالله بن معاوية ، يتزعم ثورة أخرى تطالب بالخلافة ، فلم يلبث إلا قليلاً ليزج به في سجون الدولة ، وتحمط شخصيته باهامات مفرضة ، كالزندقة وغيرها ، يروج لها الحقد السياسي والمؤامرات التي لا يخلو منها أي عصر .

وهكذا حمل هؤلاء المبدعون لواء الثورة ومسئولية التعبير عن المجتمع الذي هادن الصمت وألف الاستكانة ، وهذا ما يفسر لنا خطورة دور المعارضة التي إذا اكتملت لها مقومات التنظيم واستعدادات الصوت والسلاح والعنف مجتمعة ، استطاعت أن تدك حصون أقوى الأمم وأرسلها . . والتاريخ خير شاهد على ذلك .

ثانياً: البعد الثقافي الفكري

بين تباري السلطة وممارساتها القمعية العنيفة ، وتحديات الثوار وإنكساراتهم المستمرة ، أصبح الاضطراب السياسي موضوعاً للجدل ، فتحوّلت الخصومات السياسية إلى خصومات مذهبية عقلية ، تجمع المريدن والمؤمنين بمبادئها عن طريق الحاجة والإقناع العقلي .

وكما ازدادت الظروف الضاغطة والتكبل بالمعارضة ، اتجه هؤلاء إلى المقاومة الفكرية بعد فشل المواجهة الفعلية . . . وقام المفكرون بتحذير هذه الفرق السياسية ووضع القواعد والأصول للعمل السياسي المعارض .

المذهب الشيعي^(٣٨) واللجوء إلى الاحتجاج :

هو أهم المذاهب السياسية ونقصد بما المذاهب التي اتصلت بالسياسة أولاً وبالدين بعد ذلك ، وهو أشهر هذه المذاهب وأكثرها استمرارية حتى يومنا الحاضر ، ولكن من المهم أن نختاط للأمر ، وأن نتبين أن عقائد هذا المذهب بفرقه المختلفة لم يكن نتاج عصر سياسي واحد ، وإنما هو نتاج عصور متأخرة ، وبيئات مختلفة . . . وأن هذه الفرق وجدت في الاحتجاج الفكري متنفساً وطريقاً لتواصل المعارضة بعد تكرار فشلها وخيبة أملها في الثورات التي حملت شعارها في غالب الأمر ظاهرياً .

وقد ظهرت الفكرة الأولى في العقيدة الشيعية في حياة علي رضي الله عنه ، عندما نشر ابن سبأ فكرته عن الوصية ، وهي في مجملها فكرة سياسية كان يهدف من ورائها تأليب الناس على عثمان (رضي الله عنه) . ولقيت الفكرة رواجاً بين العامة ، على الرغم من محاربة علي لها . . . حتى إذا ما قتل علي ، أنكر ابن سبأ موته ، وقال بصعوده إلى السماء ، ثم رجعت بعد ذلك ، ليعيد العدل وينشر الحق .

٣٨- عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق : ص ٢٢ ط ٥ منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٨٢ .

الشهرستان : الملل والنحل ١/١٤٦ .

الأمام محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص ٣٣ ، دار الفكر العربي ، مصر .

يوسف حليف : حياة الشمر في الكوفة .

أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٦٦ ، ط ١١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٧٥ .

حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ط ٨ ، ٤٠٣/١ .

والحقيقة أن الشيعة فرقة إسلامية معتدلة ، إذا استبعدنا مثل (السبئية) الذين ألهاوا علياً ، وهي في كل ما تقول تتعلق بالنصوص القرآنية ، أو الأحاديث منسوبة إلى النبي (ص) ، ولكن مع ذلك ، اشتملت آراؤها على أفكار فلسفية ، أرجعها المفكرون إلى المذاهب الفلسفية والدينية السابقة على الإسلام ، وإلى الحضارة الفارسية التي انتهت بظهور الإسلام .

وتحت الضغط السياسي الذي مارسته السلطة على من يوالي علياً ، وبكارثة مقتل الحسين بن علي ، زاد التفاف الشيعة حول آل البيت ، وتحمسوا لعقد الإمامة في ذرية علي .

والمختار الثقفي — مرة أخرى — هو صاحب عقلية ابتكارية فذة ، استطاع أن يعترف على أوتار الشيعة ، بأن يجعل من أهداف ثورته الثأر لمقتل الحسين ، والمناداة بإمامة محمد بن الحنفية ، ورفع شأن الموالى الذين رأوا في علي وأبنائه الطريق للخلاص من الاضطهاد العنصري ، فاكسب تأييدهم والتفوا من حوله ، وكأنما أدرك المختار ، أن خير سبيل للوصول إلى قلوبهم ، هو اصطناع الشعوذة الدينية ، فهي أشد تأثيراً في النفوس من الإقناع المنطقي أو الحجج العقلية ، فالعامة — على كل حال — أيسر اتقياداً للدين . . فمضى ينشر أفكاره بين أتباعه ، ويمهد السبل لترسيخ مذهبه حتى أنه ادعى النبوة (٣٩) .

وبذلك وضع أسس فرقة "المختارية" التي تنسب إليه ، وهي إحدى فرق "الكيسانية" التي نادى بإمامة أولاد علي ، دون تقييد بأولاد فاطمة .

وتسقط ثورة المختار ، وتحقق طموحات الموالى الذين يعودون للسقوط مرة أخرى في وهدة الاضطهاد العنصري . . وكلما زاد الاضطهاد ، ازداد تطرف الفرق الشيعية المغالية في عقائدها ، وتعلق نفوس الموالى بهذه الفرق كأمل قد يشرق في آفاقهم المظلمة ، يؤمنون بأوهامها وأساطيرها ، وفي عودة الإمام الذي سيملا الأرض عدلاً وحقاً .

ثم يظهر زيد بن علي ، داعياً إلى تجريد العقيدة الشيعية من الأوهام والضلالات ، واضعاً بذلك الأسس التي قامت عليها فرقة "الزيدية" المعتدلة ، وعمل على تحقيق أهداف العقيدة الشيعية ، بصورة عملية ، لا سلبية أو خيالية ، فاشتراط أن تكون الإمامة في أبناء فاطمة ، وأن يكون الإمام أهلاً للقيام بدوره العملي في الحياة ، حتى وإن اضطر إلى المواجهة وحمل السيف في وجه الظالمين .

٣٩- أنظر تاريخ الطبري : أحداث سنة ٦٦ .

البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ٣٤ .

وخرجت جماعة من الزيدية ، رفضت إمامة زيد بن علي ، لتعود بالعقيدة الشيعية إلى دائرتها الضيقة ، وتمسكت بالإمامة في أولاد الحسين ، وتسلسلها فيهم ، وأمنت بالعصمة ، والرحمة ، والتقية ، وهي الأمور التي حاول زيد بن علي تجريدتها منها . . . وهكذا قامت دعائم الفرقة الضخمة "الإمامية" .

وفي أواخر العصر الأموي تظهر فرقة "الجناحية" الغالية ، التي تؤمن بتناسخ الأرواح ، وحلول روح الله ، مدعين الألوهية والنبوة وعلم الغيب ، وفيها كثير من الانحراف عن الدين والعقل .

وهذا العرض البسيط نستطيع أن نجادل بأن الحزب الشيعي نافح عن مبدئه السياسي بالسيف تارة ، وبالفكر والمجادلة فترات طويلة . . . وكلما زاد تعسف الدولة ، زاد التطرف والغلو في أفكار ومعتقدات أتباعه ، وساعدت العناصر الأجنبية بموروثاتها الحضارية القديمة ، ورواسبها الدينية المتعددة ، من مجوسية ويهودية ومسيحية على تشبعه بالأنكار والعقائد المتطرفة ، التي تبحث عن حلول آمنة بعد أن ذقت مرارة المواجهة .

وهي في أول الأمر أو آخره أصوات تومي إلى بشاعة الوضع السائد ومحاولات تغييره .

الخوارج^(٤٠) ، الإيمان بالقضية : -

اقترن ظهور هذه الفرقة بظهور الشيعة ، فكلاهما من أنصار علي رضي الله عنه الذين التفوا حوله بعد وفاة الرسول (ص) ، وسموا بالقراء ، وهم أشد الأتباع إخلاصاً له ، وحاربوا معه ثم خرجوا عليه حينما قبل بفكرة التحكيم .

وهذه الفرقة أشد الفرق الإسلامية دفاعاً عن مذهبها ، وحاسة لأرائها ، وأشد الفرق تديناً ، وأشدّها حموراً واندفاعاً ، تمسكوا بظاهر اللفظ ولم يتعمقوا في التأويل ، وعملوا على البراءة من عثمان وعلي والحكام الظالمين من بني أمية .

٤٠- البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٥٦ .

الشهرستاني : الملل والنحل ١/ ١١٤ .

محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٦٥ .

أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٥٦ .

حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ١/ ٣٨٤ .

فاطمة السويدي : الاغتراب في الشعر الأموي .

استولت ألفاظ الحرية والمساواة والإخاء والشورى والعدالة على عقولهم وسيوفهم ، فاستباحوا باسمها دماء المسلمين .

وقد دفعهم تعصبهم القبلي إلى معاداة المضربين (٤١) ، وهم الذي أصبحوا في سدة الخلافة في تلك الحقبة ، فنفرؤا من حكمهم على العصبية القبيلة ، وليس على الإخلاص لمبدأ الشورى أو المساواة ، وهذا ما يفسر أيضاً ، نفور الموالي من الانضواء تحت زعامة الخوارج ، على الرغم من الشعارات التي يرفعونها . ولعل من أشهر الشخصيات التي اعتنقت مذهب الخوارج من الموالي ، هو أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وهو من أوسع أهل البصرة علماً ، باللغة والأدب والنحو (٤٢) .

وقد اتصفوا بالفصاحة وطلاقة اللسان والبديهة الحاضرة ، وعلم بطرق التأثير البياني ، والتعصب الشديد لمذهبهم وآرائهم ، فهم لا يسلمون لخصومهم بحجة ، ولا يقتنعون بفكرة مهما كانت قريبة من الحق .

وهذه الصفات يمكن أن نلمسها في أدب الخوارج (٤٣) الذي يمتاز بالقوة في تخير اللفظ وفصاحة الأسلوب ، والإيمان بالقضية التي وهبوا أنفسهم لها ، شعراً ، ونثراً . لقد كان الشعر وسيلة أيديولوجية ، ينتصر فيها للمبدأ الذي يحارب من أجل تثبيته على أرض الواقع ، وهو وسيلة جماعية ، يفني من خلالها الفرد في صوت الجماعة ، لذلك لم يكن من اليسير دائماً على الباحث معرفة أصواتهم الفنية وأساليبهم الشخصية الخاصة . فجميعهم صوت واحد وقضية واحدة ذات لون واحد . . . لقد ذابوا في القضية .

وهكذا ظل الخوارج يحملون لواء تطرفهم السياسي الدموي ، ولم تأل السلطة جهداً في القضاء عليهم ، فتداعت النظرية المسلحة ، وتغير مسار هذا الحزب شيئاً فشيئاً إلى أنصاف متطرفين ، كالمصفرية ، ثم إلى الأباضية ، معتدلين ، خارجين على الدولة ، ولكنهم مهادنون للأمة ، غافروا لها طاعة الأئمة الجائرين ، فعكفوا على الاشتغال بالدراسة الدينية حتى استحالوا إلى فرقة دينية خالصة .

٤١ - أنظر قول رعيمهم في قضية التحكيم "لا يحكم فيها مضربان حتى تقوم الساعة" .

٤٢ - أحمد أمير فتح الإسلام ص ٢٦٥

٤٣ - احسان عباس شعر الخوارج

نايف معروف ديوان الخوارج

المرجئة^(٤٤) ، القرار من المواجهة

وهي فرقة لا يقل أثرها في توجيه السياسة الإسلامية عن الأحزاب المسلحة كالخوارج والشيعة .

وقد سميت بالمرجئة ، من الإرجاء وهو التأخير ، لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث ، كما يتحرجون عن إدانة أي مسلم ، مهما كانت الذنوب التي اقترفها .

والبدرة الأولى لنشأة هذه الفرقة بדרه سياسيه ، ثم أحدثت تتطور لتصبح — كغيرها في آخر المطاف — مذهباً دينياً دون أن ينخلص من الآثار السياسية .

ظهرت مقدمات هذه الفرقة منذ وف مبكر في حياة المجتمع الإسلامي ، وذلك في رمس الفتنة الكبرى التي هزت كيان المسلمين وهي مقتل عثمان . إذ امتنعت طائفة من كبار الصحابة مثل سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر وغيرهم عن الخوض في هذه الفتنة ، واستعادة الأحاديث التي تبشر بها ونحدر من معبة الوقوع في فخها .

بينما رأى معظم الصحابة والتابعين وجوب نصره الحق في الفتن ، والقيام معه بمقاتلة الباغيين ، ولهم أدلتهم من الكتاب والسنة .

في ضوء هذا الاختلاف نستطيع أن نلتبس المقدمات الأولى لمذهب الإرجاء ، ففي جو شاعت فيه الفتن والاضطرابات ، ولم يتورع الجميع في حمل السيف والمواجهة ، ظهرت فكرة الإرجاء كراية تدعو للسلام ، وتعلن بأن الجميع مؤمنون ، بعضهم مخطئ ، وبعضهم مصيب ، ويمكن إرجاء الحكم عليهم إلى اليوم الآخر .

ولقيت هذه الدعوة آذاناً صاغية من معظم الأفراد الذين يعيشون على هامش الصراع بين الدولة والمعارضة ، تتناهم الحيرة والاضطراب ، ولا يريدون الانغماس في الفتنة ، من هنا نجد الدعوات المتكررة من الشعراء إلى سذ الخلافات . والرجوع إلى المنهج الإسلامي في الحياة السياسية :- (٤٥)

٤٤- الفرق بين الفرق ص ١٩٠

الشهرستاني الملل والنحل ١/٣٩٩

محمد أبو زهره تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٩

يوسف خليف حاة الشعب في العراق

٤٥- ابن جرير الأندلسي ص ١١١١

سكن دعوتهم في ص ٣

ولست مقاتلاً رجلاً يصلي على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعليّ إثمي معاذ الله من سفه وطيش
أأقتل مسلماً في غير جرم فليس بنافعي ما عشت عيشي

لقد كانت هذه الفرقة طوق النجاة لكثير من المسلمين وجدوا فيها وسيلة لإراحة ضمائرهم بالتوكل على الله وارجاء الأمر إليه .

انصرفت المرحلة إلى بحث قضايا فكرية جديدة تتصل اتصالاً وثيقاً بتصورهم عن الإسلام . . إذ طرحت قضية الإيمان على بساط البحث . . فما هو "الإيمان"؟ ، فقالت طائفة منهم إن الإيمان مصدره القلب ، ولا عبرة بالمظهر أو العمل ، وقالت طائفة أخرى إن الإيمان مصدره القلب حقاً ، ولكن يجب أن يصاحب هذا الإيمان القلبي إقرار باللسان ، واتفقا على أن التصديق بالقلب وحده لا يكفي ، والإقرار باللسان وحده لا يكفي ، ولا بد منهما معاً ليكون المرء صحيح العقيدة . من هنا خالف المرحلة ، الخوارج ، والمعتزلة ، في موقفهم من مرتكب الكبيرة ، ومسألة التخليد في النار ، ومسألة درجات الإيمان ، وغير ذلك من المسائل التي تفيض بها كتب الفرق والعقائد عرضاً ومناقشة ، وهي مسائل لا تزال تشغل تفكير كثير من الباحثين .

والملاحظ أن نزعة الإرجاء اشتدت ، وانتشرت في أواسط الحقبة الأموية ، منذ مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه . . وكلما اشتدت قبضة الدولة على مخالفيها من المعارضة ، ازداد الاضطراب السياسي ، وشاع القلق النفسي . . وإذ أخذت السلطة الناس بالشبهات ، فلم يأمن المرء إذا أصبح أن يمسي ، وإذا أمسى أن يصبح ، ووجد الناس في هذا الحزب ضالّتهم ، وحوّلوا حقهم وعجزهم عن ممارسة حقوقهم ، كمواطنين إلى مواجهات فكرية عقلية مع الأحزاب الأخرى ، لإفراغ تلك الطاقة المشحونة في النفوس المتوترة . .

وككل جديد تمحس لأفكار المرحلة كثيرون ، وحذر من خطرهما آخرون ، فأروا بأنما من البدع الضالة المضلة . . وما بين الرفض والقبول ، انتشر المذهب انتشاراً عظيماً ، وصادف هوى وقبولاً عند جميع طبقات المجتمع ، الخاصة والعامة ، حتى يذكر الأصفهاني في الأغاني رأي أحد الإباحين بقوله : إن أعلاي شيعي ، وأسفلي مرجئي (٤٦) ، وفي هذا مؤشر لمدى انتشار هذا التيار بين طبقات المجتمع .

المعتزلة^(٤٧) ، تأسيس المنهج الاتحراقي :

هي واحدة من الفرق الإسلامية ، إلا أن نشأتها كانت نشأة سياسية ، إذ كانت إحدى الحركات المعارضة للدولة الأموية ، ولكنها في كل الأحوال ، لم تشر على الدولة ثورة مسلحة ، وإنما كانت لإيمانها بمنهج الحوار والعقل ، تقف موقف كراهية من السلطة ، وزاد خطرهما في أواخر القرن الأول الهجري .

للمعتزلة منهج مختلف عمن سبقهم ، جاء من تقديرهم لسلطان العقل ، فقد ورث الاعتزال جوهر الحركات الاحتجاجية الأخرى كالجزيرية والقدرية . . . وهكذا تبلورت تلك الحركات بصورة فرقة جديدة لها مرجعية عقلية واضحة .

وفي خضم هذه التيارات التشعبة — وهي من إفرازات القلق ، وما يتصل به من توتر — قامت السلطة باضطهاد المفكرين الخارجين على نسقها العام ، بالصاق التهم بهم ، ومن ثم معاقبتهم : يقول الأوزاعي (٤٨) : "قلم علينا غيلان القدري — وهو من أوائل من تكلم في القدر — في خلافة هشام بن عبد الملك ، فتكلم غيلان ، وكان رجلاً مفوهاً ، ثم أكثر الناس الوقعة فيه والسعاية ، بسبب رأيه في القدر ، وأحفظوا هشام بن عبد الملك عليه ، فأمر بقطع يديه ورجليه ، وقتله وصلبه" .

ومعبد الجهني أيضاً من المتكلمين بالقدر ، قتله الحجاج صبراً (أسيراً) ، وجهم بن صفوان قتل على الزندقة والإلحاد ، في آخر زمان بني أمية ، وقبله أستاذه الجعد بن درهم الذي قتله خالد القسري أيضاً على الزندقة ، فهو زعيم طائفة الجزيرية ، والتي تقول بأن الإنسان مجبور لا اختيار له ، ولا قدرة . بينما ترى القدرية بأن الإنسان حر الإرادة .

حرية الرأي والتفكير أودت بكثير من العلماء والمفكرين ، فقد حوربت هذه الطوائف النخبوية محاربة عنيفة ، حتى أن خصوم القدرية ، ألصقوا بهم هذه التسمية لحديث ورد : "القدرية يحوس هذه الأمة" .

٤٧- الفرق بين الفرق : ص ٩٣ .

الملل والنحل : ٤٣/١ .

محمد أبو زهرة : المذاهب الإسلامية ص ١٢٤ .

أحمد أمين : ضحى الإسلام ٢١/٣ ط ١٠ مكتبة النهضة المصرية .

٤٨- أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٨٥ .

نكشف لنا هذه المعطيات ، كيف أن السلطة تقوم بالتلاعب الواضح فيما يخصّ الفاعلين الاجتماعيين من أجل القضاء على الخصوم ، فعيالان ومعبد ، والجهم ، والجمع ، والجمعة ، شخصيات فاعلة فكرياً في الحقبة الأموية ، وقد شغلوا جميعاً بفكرة العدالة ، تلك الفكرة التي جرى تعويمها بوضوح كرد فعل للاستبداد الأموي ، ولكن يصعب على السلطة مواجهة دعاة العدالة الاجتماعية ، فكان أن لفقت لهم التهم الدينية ، والواقع فإن تهمة الزندقة كانت — ولا تزال — سيفاً مُصلتاً على رقاب المفكرين المعارضين في تلك الحقبة والحقب اللاحقة .

لم يجر في أي زمن مواجهة دعاة العدالة بحجج ، إنما جرى دائماً وصمهم بتهم دينية ، وأخلاقية ، فالسلطات حين تقوم بإسقاط التهم على خصومها تقوم بعملية مزدوجة ، فمن جهة — أولى — تشرك الرأي العام ، عبر خداعه في التخلص منهم ، حينما تضعهم في تعارض مع قيم الدين ، قيم الجماعة ، ومن جهة ثانية ، تبطش بعنف بهم ، وتخلص منهم عبر الترويج المخادع لخطر شامل . . وهكذا يتم التلاعب بكل من الخصوم والمجتمع في عملية بارعة من الذكاء السياسي الذي يفتقر إلى أية نزاهة أخلاقية .

لقد مهد هؤلاء المفكرون الدرب لظهور منهج افتراقي جريء ، وجديد على العقلية العربية ، هو مذهب الاعتزال ، وشق علماءه طريقاً جديداً ساروا فيه وخالفوا غيرهم . ويتلخص مذهب المعتزلة في عدة أمور ، منها القول بالمنزلة بين المنزلتين ، أي أن مرتكب الكبيرة ، ليس بكافر (رؤية الخوارج) ، ولا مؤمن (رؤية المرجئة) ، ولكنه فاسق ، إنه في منزلة بين المنزلتين .

أموا أيضاً بالقدر ، وأن الله لا يخلق أفعال الناس ، إنما هم الذين يخلقون أعمالهم ، ومن أجل ذلك يثابون أو يعاقبون ، استناداً إلى أفعالهم ، فعادلة الله المطلقة لا يمكن ثلمها من إخطاء البشر ، فهذه الأخطاء يقتربها الإنسان بنفسه ، ولم يقرر أمرها الله سبحانه وتعالى .

كما قالوا بالتوحيد ، فنفوا أن يكون لله تعالى صفات أزلية ، من علم وقدر ، وحياة ، وسمع ، غير ذاته . . بل الله عالم قادر وحيّ سميع بداته .

فصفات الله لاحقة لوجوده ، إنه هو الموجود الأول ، وصفاته محدثة ، إذ لا يصح حسب أيهم أن يشرك بين قدم الله . وقد صغاه

و دار للعمل سلطه واصحه في مهجهم . قد يكون . القادر . على معرفه الحسن . والقيبح .

وينقل كثير من المفكرين بأن رجال هذه الفرقة قاموا بمعارضة أصولهم على الآيات يؤولوها ، وما يعارضها من أحاديث ينكرونها ، ولذلك كان موقفهم من الحديث موقف التشكك في صحته ، وأحياناً موقف المنكر له ، لأنهم يحكمون العقل في الحديث ، لا الحديث في العقل .

ويضيف كثير منهم ، بأن فرقة المعتزلة من أحرأ الفرق على تحليل أعمال الصحابة ، ونقدهم ، بل وإصدار الحكم عليهم .

ومن الواضح أن تاريخ المعتزلة كتبه خصومهم ، ونادراً ما نجد نصوصاً موثقة ، وأصلية لهم .

لقد وردت آراؤهم في كتب الملل والنحل ، وجرى تزييف لبعض المواقف ، فإذا رجعنا إلى أحد أكبر أعلام الاعتزال وهو أبو الحسين البصري في كتابه ، (المعتمد في أصول الفقه) ، فإنه ينص على إن العقل يكون فيصلاً فيما لا نص فيه ، " إن العقل إنما لا يوجب العبادة ، بشرط أن لا ينقل شرع ، فإذا روى شرع ناقل ، صار كأن العقل ما اقتضى نفي العبادة ، لأن شرط اقتضائه لنفيها قد زال " . (٤٩) .

المعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام في الإسلام ، واستفادوا من مناهج خصومهم في الدين كاليهودية والمسيحية ، والجوسية والدهرية ، واستفادوا من الفلسفة اليونانية ، لقد استعانوا بكل هذه المناهج في نظرياتهم وجدلهم — وقبل كل ذلك — صبغوها بالصبغة الإسلامية .

هذا التمازح الثقافي الذي انتفحوا عليه ، ولم يأنفوا منه ، تألفت الحضارة العربية ، وبلغت قمة ازدهارها وخاصة في عهد المأمون .

ومن خلال هذا المنهج العقلي الرحب ، تألفت الفكرة العربية بمضمونها الحضاري في مقابل الشعبية الأعجمية ، والعصبية القبلية ، والتفسير الضيق للدين . وبه أيضاً تألفت العقلانية في مقابل النصية أو منهج النصوصيين .

حين تبنت الحضارة العربية التعددية الثقافية بدلاً من المفهومات الضيقة (العرق ، الدم ، النسب) كميّار للاتفاق والاختلاف ، استطاعت أن تتحد في كل واحد ، لتولد ثقافة عربية أسهمت في صنعها أعراق متعددة إلى جانب العرب .

٤٩- أبو الحسين البصري ، المعتمد في أصول الفقه ، قدم له : الشيخ خليل الميس ، ١٨٣/٢ ، ١٨٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت

ثالثاً : البعد الاجتماعي الطبقي

إن حالة المجتمع ، وما يولده من تفاوت ولا مساواة ، هي السبب في شعور الفرد بعدم الانتماء الوثيق إلى المجتمع الذي يعيش فيه . ومن الواضح أن المجتمع العربي تَخَلَّى عن أسمى صفات الدعوة الإسلامية بالنبذ العنصري / العرقي للفتات التي اعتبرها دائماً دخيلة على نظامه القبلي ، فكان يمارس سطوته ضد المختلفين عرقياً من خلال التهميش والاستبعاد ، وتقليص الدور الاجتماعي . وأهم المهْمَشِين / الموالِي والعبيد .

الموالي ؛ التسامي على الواقع :-

وهم الكثرة الساحقة في المجتمع العربي ، وهي فئة تعاني أوضاعاً اقتصادية صعبة ، رغم أنها العصب الحقيقي للاقتصاد (عمالة أجنبية بمفهوم معاصر) ، وتعاين إذلالاً اجتماعياً وسياسياً .

ونظرة عاجلة إلى أوضاع الموالِي تساعدنا على التحقق من ذلك الوضع البائس الذي مُني به الموالِي ، إذ استشرت العصبية العنصرية بين العرب فازدروا الموالِي كل الازدراء فكانوا لا يكتوهم بالكُنى ، ولا يمشون في الصف معهم ، ولا يدعونهم يصلُّون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب وإن كان غريباً (٥٠) . مع أن الرسول (ص) قد أوصى بهم ، وأكد على أنهم جزء أساسي من لُحمة الإسلام .

بهذا الوضع الاجتماعي القائم على التحقير والازدراء ، تجاور العرب والموالِي ، فإذا نظرنا إلى سياسة الدولة ، نجدتها صورة مطابقة للوضع الاجتماعي ، وإن كانت أكثر جوراً وتسليطاً وقوة في التنفيذ . فمعاوية يرى أن هذه الحمراء (الموالِي) قد كثرت "وأراها قد طعنت على السلف ، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق (٥١) . وعلى الرغم من رؤيته المستقبلية لما آل إليه الحال فيما بعد ، فإنه لم ينفذ رأيه فيهم ، وإن لم يتورع الخلفاء من بعده عن قتل أعداد هائلة منهم حتى ليصعب تصديق أرقامها .

٥٠- ابن عديريه : العقد الفريد ٤١٣/٣ .

٥١- المصدر السابق : ٤٠٩/٣ .

فهم من قول معاوية إن العرب استأثروا بالمناصب الهامة في الدولة ، وبخاصة السياسية والدينية ، ولم يسمحوا للموالي بممارسة مواظمتهم التي ضمنها لهم الإسلام ، والتي أعلنها — وبشكل واضح — الرسول عليه السلام في خطبة الوداع ، بل تركوا لهم الأعمال التي كانوا يأنفون منها ، كالزراعة والصناعة ، والحرف اليدوية ، التي برع بها الموالي ، وهي في واقع الأمر عماد الاقتصاد في دار الإسلام .. وأيضاً أوكّلوا إليهم مهمة الجباية ، لأنهم على حدّ تعبير عبيد الله بن زياد "أبصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة ، وأهون في المطالبة من العرب " .

ولكن هؤلاء وعلى الرغم من سيطرتهم الاقتصادية ، لم يمثلوا إلا نسبة ضئيلة من الموالي ، أما السواد الأعظم منهم فلم يكن لهم أي نفوذ ، ولم ينعموا بجمع المال والثراء .

ولما كانت اللغة عائقاً بين العرب ، وبين الموالي الذين يتكلمون الفارسية ، في سني الدولة الأموية الأولى ، اختفت أصواتهم المعبرة عن هذا الوضع ، وانسحقت مشاعرهم ، ومعاناتهم لانقطاع الصلة اللغوية .. ولم يبق أمامهم إلا التعبير بالفعل كشاهد لتمردهم ورفضهم للوضع القائم .

في ظل هذا الاختلال الطبقي ، الناتج عن وهن العلائق ، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية متضامنة ، كانت ردود الفعل قوية عنيفة ، وأول ردود الرفض والحقد كانت على يد أبي لؤلؤة مولى للمغيرة حين اغتال خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ، .. فها هي الموالي تحقق انتقامها بقتل أبرز رموز العرب .

ثم تحولت الردود الفردية أمام ازدياد التحديات الاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية ، إلى ردود جماعية ، تعبر عن غضب هذه الفئة ، ورفضها الاستكانة لأوضاعها غير العادلة .. فكانت الثورات المعارضة والمناوئة للسلطة ، هي معامل التعبير الرفض ، وهي بالمقابل (الثورات) احتضتهم ، ولم تأل جهداً في رفع شعاراتهم المطالبة بالمساواة ، وتحقيق العدالة الاجتماعية ، وإن كانت في واقع الأمر ، اتخذتهم مطية سهلة ، لتحقيق مآربها الذاتية ، وتحقيق رغباتها في السلطة والحكم . ولن نجد ثورة في العصر الأموي إلا والموالي وقودها ، يقتلون العرب بالسيوف وجنوح الأشجار ، أو كما يقول الطبري بشجاعة العرب وحقد العجم .. فشاركوا الشيعة ثورتهم ، وانضموا إلى ابن الزبير .. وانضموا للخوارج ، وللمختار الذي

رفع من شأنهم وإلى ابن الأشعث وغيره ٠٠ ولعل كثرة الثورات ، في خراسان وفارس والعراق تدلنا دلالة واضحة على مدى رفض الموالي للسلطة الأموية ، ومدى تمردهم في هذه البقاع ٠٠ ولم تحقق القيادات العربية في هذه الثورات للموالي تطلعاتها ٠٠ حتى كانت ثورة أبي مسلم الخراساني الذي قاد الانقلاب العباسي ، وبها ضربوا العرب ضربة قاصمة ، وحققوا آمالهم في الانقلاب الاجتماعي الكبير والخطير ، فتراجع العرب إلى المكانة الثانية ، وخلت الصدارة للفرس والموالي في الدولة الجديدة .

واستطاع الشعراء والمفكرون أن يمهّدوا الطريق لهذه النتيجة الباهرة ، فعبر المبدعون ، بقدرتهم الشعرية الفائقة على تمثيل الأفكار والمواقف ، بكل أشكالها الصريحة ، والخفية ، في قيادة هذا الصراع الطبقي ، بالتعبير عن فخرهم واعتزازهم بأصولهم الأعجمية ، في مقابل الأصول العربية ، وكلما ازداد ضغط السلطة ، ازداد احتيال الشعراء باستخدام الوسائل الرمزية في التعبير . يقول إسماعيل بن يسار النسائي مفتخراً (٥٢) :-

ربّ خال متوجّ لي وعمّ ماجد مجتدي كريم النصاب
إنما سمّي الفوارس بالفر (م) س مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركي الفخر يا أمام علينا واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألّي ، إن جهلت عنا وعنكم كيف كنّا في سالف الأحقاب
إذ نربّي بناتنا وتدسّو (م) ن سفاهاً بناتكم في التراب

يقيم الشاعر تراتباً واضحاً بين نسب رفيع يتصل بمجد عظيم ، يمثله الفرس ، ونسب وضيع اندفع من الصحارى ، يمثله العرب ، ثم يدخل المرأة التي طالما اختزلت في ذلك التراتب ، ففيمّا كان العرب يقتلون بناهم وأداً ودفناً في التراب ، كان الفرس يحتفون بالمرأة ويكرمونها . فالشاعر يفاضل بين عرقين ، وحضارتين ، ويريد أن ينتهي إلى أن انتماء الإنسان إلى عرق ، حقيقة مطلقة تظلّ ميزة له ، مهما تقلّبت به الأقدار . وضع الفرس بمقارنة مع العرب كما يتصور ابن يسار ينتهي إلى ثنائية القدح والمدح .

لقد كان التعريض الصريح مكلفاً ، فقد أمر هشام بن عبد الملك ، بإغراقه حتى كادت أن تزهق أنفاسه ، ثم نفاه . .

ثم يعاود الأمر كرة أخرى فيقول (٥٣) :-

إني وجدتك ، ما عودي بذئ خورٍ عند الحفاظ ، ولا حوضي مهذوم
أصلي كرم ، ويجدي لا يقاس به ولي لسانٌ كحدّ السيف مسموم
أحبي به مجدّ أقوام ذوي حسبٍ من كل قهرٍ بتاج الملك معموم
جحاحج سادة بلج مرابزة حُرْدُ عتاق ، مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً والمهرمزان لفخرٍ أو لتعظيم

ونجد أيضاً ، ابن ميادة يفخر بهذا النسب (٥٤) :-

أنا ابن سلمى وجدني ظالم وأمي حصان أخلصتها الأعجام
أليس غلام بين كسرى وظالم بأكرم من نيّطت عليه التمام
لو أنّ جميع الناس كانوا بتلعةٍ وجئت يجدي ظالم وابن ظالم
لظلت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أقدامنا بالجماحم

واستطاع سديف بن ميمون حتّ السفاح — مؤسس الدولة العباسية — والشّدّ من

عزمه ، في القضاء على من تبقى من الأمويين ، فجرد فيهم السيف (٥٥) :-

يا ابن عم النبي أنت ضياءٌ استبنا بك اليقين الجليا
جرد السيف وارفح العفر حتى لا ترى فوق ظهرها أموياً
لا يفرّئك ما ترى من رجالٍ إن تحت الضلوع داءً دويّاً

ومن بوادر الاعتراض والاحتجاج السياسي ، ما قام به يزيد بن مفرغ الحميري من هجاء

لرموز السلطة السياسية ، متمثلة في زياد بن أبيه وأبنائه ولالة العراقيين ، فكان يكتب هجاء

على حوائط الأزقة والخانات والساحات العامة ، متخذاً من نسب زياد مدخلاً لهجاء بني أمية

وعلى رأسهم معاوية (٥٦) :-

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة من الرجل اليماني
أنغضب أن يقال أبوك عفّ وترضى أن يقال أبوك زاني

٥٣- إسماعيل بن يسار : ديوان شاعر ص ٩٣

٥٤- شعر ابن ميادة : جمع محمد تايّف التليمي ص ٩٨ .

٥٥- شعر سديف بن ميمون : جمع وتحقيق رضوان مهدي البود ص ١٧ . النسخ ١٩٧٤ .

٥٦- الأغانى : شعر يزيد بن مفرغ ٢٦٥/١٨ ، ٢٨٥ .

ويلمز عبيدالله بن زياد بقوله :-

ففكر ففقي ذاك إن فكرت معتبر هل نلت مكرمة إلا بتأمير
عاشت سمية ما تلري وقد عمرت أن ابنها من قريش في الجماهير
فعذب عذاباً شديداً ، وأمر بمحو ما كتب بأظافره وعظام أصابعه ، في تجربة مريرة .
لقد كان الشعر هو نبض الشارع الحقيقي ، لا يلوي عنقه المؤرخون ومتنفذي العصور
السياسية ، لذلك كانت دلالات النصوص مشعة بالحقيقة ، وأصواتهم الاحتجاجية عالية ،
تكشف بحق معاناة الموالي من السلطة والمجتمع .

ووسائل التعبير عن الاعتراض والغضب لا تنضب ، تنفس عن مشاعر مكبوتة متأججة ،
تبحث عن طريق للانتقام من العرب ، والسجون مناخ جيد لاستبدال الأدوار ، وللتشفي من
المتسلط ، المتسيد دائماً . . يذكر القتال الكلابي تجربته المريرة تحت يد السجان المولى . . تلك
التفاصيل التي تحمل دلالات مريرة عن اختلال العلاقة بين الطرفين (٥٧) :-

وكالي باب السجن ليس بممتن وكان فراري منه ليس بمؤتلي
إذا قلت : رفهني من السجن ساعة تدارك بما نعى علي وأفضل
يشد وثاقي عابساً ويتلني إلى حلقات في عمود مرمل
وتتفاعل في قلب السجان مشاعر الحقد الدفين ، لا يأبسه بآلامه
الجسدية أو النفسية (٥٨) :-

إذا شئت غتني القيود وساقني إلى السجن أعلاج الأمير الطمطم
لقد كانت فكرة التماهي بالمتسلط هي إحدى وسائله الدفاعية ، لحل مأزقة الوجودي في
مجتمعه الذي ينتمي إليه ، ويفصل عنه في الوقت ذاته . . لقد كان بممارساته هذه ، وتشبهه
بالأقوى والأعنف ، وهي السلطة التي يعمل لديها ، محاولة انتقامية من هذا المجتمع الذي ييخسه
ذاته ، ولعله يجد في هذا السبيل أملاً — نفسياً — للخلاص من القهر والتكر .

لقد ظلت نظرة العرب الدونية لغيرهم ، سيفاً مشهوراً في عيون العناصر الأجنبية ، التي
تطلع للخلاص منه ، وسعى الموالي جاهدين لتغيير هذه النظرة ، بل وتغيير المجتمع العربي ،
وإجباره على احترام حقوقهم ، فلم يكتفوا بالمشاركة الصامتة في ثورات الآخرين ، والتي لم

٥٧- ديوان القتال الكلابي : تحقيق إحسان عيسى ص ٧٣ دار الثقافة بيروت ١٩٦١ .

٥٨- المصدر السابق ص ٦٣ .

يجنوا منها إلا الشعارات ، فعمدوا إلى الإعلاء الفردي للذات ، فالمدارس العلمية بطوابعها المختلفة ، تستند على آرائهم ، فهم أقوى أركانها ، وأكثر العلماء من الموالي ، الذين استطاعوا أن ينهضوا بالعلم نهضة واسعة ، وأن يتفوقوا على العرب في هذا المجال . وعرض نموذج واحد كفيل بالدلالة على هذه الوثبة العلمية التي بز فيها الموالي غيرهم : - جاء في العقد الفريد (٥٩) " قال ابن ليلى : قال لي عيسى بن موسى ، وكان دياناً شديداً العصية (أي للعرب) : مَنْ كان فقيه البصرة ؟ قلت الحسن بن أبي الحسن ، قال : ثم مَنْ ؟ قلت : محمد بن سيرين . قال فما هما ؟ قلت : موثليان . قال : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت عطاء بن أبي رباح ، ومجاهد وسعيد بن جبير ، وسليمان بن يسار . قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موال ، قال : فمن فقهاء المدينة ؟ قلت زيد بن أسلم ، ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن أبي نجيح . قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موال . فتغير لونه ، ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت : ربيعة الرأي وابن الزناد . قال : فما كانا ؟ . قلت : من الموالي ، فأربد وجهه ، ثم قال : فمن فقيه اليمن ؟ قلت : طاروس وابنه وابن منبه . قال : فمن هؤلاء ؟ قلت : من الموالي ، فانتفتحت أوداجه ، وانتصب قاعداً ، قال : فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت : عطاء بن عبدالله الخراساني ثم قال : فمن فقيه الكوفة : قلت فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة وعمار بن أبي سليمان ، ولكن رأيت فيه الشر ، فقلت : إبراهيم (النخعي) والشعي . قال : فما كانا ؟ . قلت : عرييان . قال : الله أكبر ، وسكن جأشه .

فمن الأسباب التي جعلت الموالي يصلون إلى هذه المكانة الإبداعية المتميزة ، حرصهم على إثبات وجودهم في هذا المجتمع الرافض ، وغير المعترف بأحقيتهم ، وكأنما كان نشاطهم العلمي رداً عملياً على العرب ، الذين يرفضون فكرة المساواة هم ، فكيف التفوق عليهم . هكذا نجح الموالي من بلوغ هدفهم في اصطناع المكانة اللاحقة لهم علمياً ، وأن يفرضوا أنفسهم على العرب ، وبخاصة في العلوم العلمية والدينية ، واستطاعوا أيضاً أن يسهموا في الثقافة العربية الإسلامية إسهاماً واضحاً . .

كما استطاعوا بنقرات الغضب المستمرة على جداران المجتمع ، أن يكونوا حركة مستمرة في ما بعد ، وهي حركة الشعبية ، التي أخذت تقوى وتشتد ، وترقب الفرص ، حتى أصبحت خطراً مدمراً على الثورة التي احتضنتها ، وهي ثورة العباسيين ، والتاريخ يبين

كيف تعرض أصحابها للبطش من السلطة بين حين وآخر . فابو مسلم الخرساني أول من بطشت به الدولة الجديدة ، ثم تأتي بعد حين نكبة البرامكة وهكذا . . . هذه الضربات المتلاحقة وغيرها مهدت الطريق لبزوغ نمط جديد ، في العيش والتعايش ، والخلق والتفكير ، سيظهر قوياً متألقاً في الحضارة الإسلامية .

العييد ؛ تراكم الوعي^(٦٠) :-

عاش السود متصالحين في خنوع ، مطأطئي الرؤوس للحضارة العربية ، قبل الإسلام وبعده ، منبذين في عالم المجتمع ، يعيشون عند الناس ، لا مع الناس ، لا يعيشون في الحياة ، بل يعيشون مضطرين ضيقاً على الحياة ، تركهم التاريخ بلا هوية ولا انتماء .

المبدع من بينهم منفي من عالم التقدير والرعاية — بالرغم من إجلال العرب للإبداع والمبدعين — فهو إن شيع شيب بنسائهم ، وإن جاع هجاهم . كما يقول عثمان بن عفان رضي الله عنه .

والتمييز العنصري يظهر حتى في عالم الإبداع (٦١) :-

وخير الشعر أشرفه رجالاً وشر الشعر ما قال العبيد

يحثوا عن عالم العدل الاجتماعي ، الذي ذاقوا طعمه بالإسلام ، ولكنه لم يلبث أن أفل سرياً ، فالفجوة تسع يوماً بعد يوم ، ما بين المبادئ الإسلامية والمفاهيم القبلية ، وزادت الضغوط السياسية من سحق هذا الكائن اقتصادياً ، ومن قبل وبعد ، اجتماعياً ، هذا التكرار الإنساني ، كان دافعاً لظهور صوت جديد معارض ، يحمل نبرات متعددة ما بين الاعتذار والتبرير إلى السخط والانتقام .

إن تطور المجتمع العربي — بكل أبعاده القمعية — أفرز أنماطاً مختلفة من التفكير ، فبعد أن كان يستشعر الملونون في أنفسهم الدونية ، وآمنوا بانعدام كفاءتهم الاجتماعية ، وتشبثوا بالقلم والمألوف ، والسائد والمطلوب ممن هم في طبقتهم ، أو ما يمكن تسميته بالعنف الموجّه إلى الذات ، يمارسه الملونون في شكل استكانة ، وتبخيس للجماعة

٦٠- عبيد بنوري : الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٨٨ .

٦١- الأصفياني :- الأغاني ١/ ٣٣٨ .

التي يتمتعون إليها ، فهذا سحيم عبد بني الحسحاس يقدم صورة عن ذاته ، تلك التي رسمها له الآخر (٦٢) : -

أتيت نساء الحارثيين غدوة بوجه يراه الله غير جميل
فشبهنني كلياً ولست بفوقه ولا دونه إذ كان غير قليل
ثم لا يلبث أن يكون الغنف انفجارياً ، يعبر فيه عن ميوله التمردية ، ورفضه الواقع بطريقته الخاصة ، وهو الانتقام من السادة ، ومن المجتمع ، بالتعرض لأهم رموزهم وهي النساء . . اندفع إلى عالم الشعر المكشوف ، يؤكد حقه ورجولته بالتجول في أجساد الحرائر المحرمات في جرة سافرة ، وإن كلفتة حياته (٦٣) :-

شدوا وثاق العبد لا يفلتكم إن الحياة من الممات قريب
فلقد تحدر من جبين فتاتكم عرقٌ على ظهر الفراش وطيب
لم يسر هو وغيره في طريق الانتقام مغياً ، أو مدفوعاً بقوة يجهلها ، وإنما سار بوعسى يحفزه الهوان الاجتماعي المستمر ، لم يعد ذلك العبد المطأطئ الرأس ، لقد كان يستشعر بإنسانيته ، ويدافع عنها ، في محاولات إعلامية للذات المنكسرة أمام قيم ومفاهيم اجتماعية مختلفة . . فكثيراً ما يتحدث عن الأخلاق الرفيعة التي يكتنها ذلك الجلد الأسود (٦٤) : -

إن كنت عبداً فنفسى حرة كرمأ أو أسود اللون أنى أبيض الخلق
وأحياناً أخرى ، بمحاولة اقناع الآخر ، بأن اللون الأسود لا يحمل السوء في ذاته (٦٥) : -
— فإن أك حالكاً فالمسك أحوى وما لسواد جلدي من دواء
— فإن يك من لوني السواد فإنني لكالمسك لا يروى من المسك ذائقه
وغالباً ما يستعين بموهلاته الإبداعية ، فهي السبيل لاختراق عوالم السادة :-

٦٢- الشعراء السود : ص ٩٤ .

٦٣- المرجع السابق : ص ١٠٠ .

٦٤- المرجع السابق : ٩٤ .

٦٥- الأغاني : شعر نصيب ٣٥٤/١ .

- من كان ترفعه منابت أصله فيوت أشعاري جعلن منابتي (٦٦).
 — أشعار عبد بني الحسحاس قمن له يوم الفخار مقام الأصل والورق (٦٧).
 — ليس السواد بناقص ما دام لي هذا اللسان إلى فؤاد ثابت (٦٨).

لقد دفعت مشاعر الانحطاط والدونية بالمتبردين إلى عالم المجاهمة والاقتحام ، ولم تعد القوة السوداء تطبق الصمت ، ولا الاعتذار عن السواد ، فعمدت على تطوير وعي أفرادها باستقلالهم ، وأحقيتهم في الكرامة الإنسانية ، وفي أنظمة تحقق العدل الاجتماعي ، الذي بشر به الإسلام . . فالجماعة العربية ليست بأفضل من جنودهم الأفريقية أو الحبشية . . هذا الاعتزاز بالجنر العرقي ساهم الموالي إذكاءه في نفوسهم ، وإن كان صوته ليس بالقوة والعنف الفارسي . . ولكن الحيقطان يؤكد هويتهم وتاريخهم :-

لئن كنت جعد الرأس والجلد فاحم فإني لسبط الكف والعرض أزهر

فإن كنت تبغي الفخر في غير كنهه فرهط النحاشي منك في الناس أفخر

ولقمان منهم ، وابنه ، وابن أمه وأبرهة الملك الذي ليس ينكر
 غراكم أبو يكسوم في أم داركم وأنتم كقبض الرمل أو هو أكثر

لم يعد السود يخرجون إلى الحياة بشكل شبه اعتباطي ، لم يعد يولد كمصادفة أو عبء أو أداة لخدمة عالم السادة . والعلاقة مع الآخر لم تعد علاقة سيادة وتبعية كما كانت ، لقد تحولت لدى الإنسان الأسود المقهور إلى علاقة مجاهمة عنيفة ، ينتصر فيها على كل العقد الذاتية ، ينتصر على الخوف واليأس ، يعمد إلى تحرير نفسه من ذلك الموات المعنوي والوجودي .

هذه الروح الجديدة التي دفع بها الضغط والقمع ، أطلت بعيونها الغاضبة في وجه المجتمع ، وعبرت عن الرسالة التي تؤكد حقهم بالعيش الكريم . . كانت في الواقع تحضيراً لحركة تالية ، تجعلهم في دائرة الضوء ، بعد أن كانوا متوزعين بين عالمين ، عالم يرفض الاعتراف بمواطنتهم ، وعالم خاص ضيق ، هو عالمهم الأسود .

لقد كانت ثورة الزنج رداً قوياً لسنوات الصمت والطاعة للسيد العربي .

٦٦- الأغاني : ٣٥٢/١ .

٦٧- الشعراء السود : ٩٤ .

٦٨- الأغاني : ٣٥٢/١ .

خاتمة

إشكالية هذه الدراسة ، الحرية ، وأرمة الإنسان العربي ، ماضياً وحاضراً . هـاك دائماً سلطة ومتسلطون ، تتمتع دائماً هذه الحرية بمستويات مختلفة . ولكن الأفكار لن تغيب أبداً عند الخاصة والعامة ، عند الأفراد والجماعات ، إزاء هذا القمع والقهر ، والتسلط والتهميش . ستكون الأفكار دائماً قادرة على أن نشق لنفسها مسالك ومسارب ، بارزة وخفية ، قد تكون أكثر عنفاً وتدميراً للمجتمع ، كما حاولت بحريات هذه الدراسة تبيان ملامحها .

جزء أساسي من إشكالية البحوث الاجتماعية والإنسانية محاولة ربط ما يجري اليوم في مجتمعنا على الساحة الاجتماعية — الثقافية ، والسياسية — الفكرية ، بجنور الممارسات التاريخية القمعية . وذلك ليس لأن التاريخ يعيد نفسه بالضرورة ، ولكن ربما ، لأننا لا نملك صماناً أكيداً لصياغة المستقبل الثقافي الحضاري العربي ، بصورة مختلفة تماماً ، أو منشقة عن الماضي ، حيال الأقليات السياسية والعرقية والثقافية ، والتسامح مع الاختلافات من كل نوع . فالإبداع والمألوف لا يلتقيان . والحرية هي أولاً وأخيراً هي حرية الفكر وإبرازه والتعبير عنه ، وضمان أمن أصحابه من المفكرين .

المصادر والمراجع :-

- ١- ابن الأثير ، أبو الحسن علي الشيباني (-٦٣٠هـ)
الكامل في التاريخ ط ٦ ، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٦ .
- ٢- الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسن (-٣٥٦هـ)
الأغانى : تحقيق عبدالكريم إبراهيم
طبعة مصورة عن دار إحياء التراث العربي ١٩٧٠ .
- ٣- إحسان عباس : ديوان الخوارج ، ط ٢ ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٤ .
- ٤- أحمد أمين : فجر الإسلام ، ط ١١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٧٥ .
: ضحى الإسلام ، ط ١٠ ، مكتبة النهضة المصرية .
- ٥- أحمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب ، ط ٢ ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٧١ .
- ٦- إسماعيل بن يسار : ديوان شاعر ودراسة ، د. يوسف بكار ، دار الأندلس
بيروت ١٩٨٤ .
- ٧- أيمن بن خريم الأسدي : أخباره وأشعاره ، تحقيق الطيب العشاش ، حليات الجامعة
التونسية ، العدد التاسع ١٩٧٢ .
- ٨- بروكلمان ، تاريخ الشعوب العربية .
- ٩- البصري ، أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب (-٤٣٦هـ) .
المعتمد في أصول الفقه ، تقديم : الشيخ خليل الميس ، دار الكتب
العلمية بيروت ١٩٨٣ .
- ١٠- البغدادي : عبدالقاهر بن طاهر (-٤٢٩هـ) .
الفرق بين الفرق ، وبيان الفرقة الناجية منهم ط الخامسة ، تحقيق لجنة إحياء
التراث العربي ، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٢ .
- ١١- البلاذري ، أبو العباس أحمد بن يحيى (-٢٧٩هـ) .
أنساب الأشراف ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد (د.ت) .
- ١٢- ابن الجوزي : أبو الفرج عبدالرحمن (-٥٩٧هـ) .
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ، دار الكتب
العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢ .

- ١٣- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط ٨ مكتبة النهضة المصرية .
- ١٤- حسين مؤنس : تاريخ قریش ، الدار السعودية للنشر ١٩٨٨ .
- ١٥- أبودهيل الجمحي ، الديوان ، تحقيق عبدالعظيم عبدالمحسن ، النجف ١٩٧٢ .
- ١٦- ابن عبدربه ، أحمد بن محمد (-٣٢٨هـ)
العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين ، منشورات دار الكتاب العربي
بيروت ١٩٨٢ .
- ١٧- سديف بن ميمون ، شعره ، تحقيق رضوان مهدي العبود ، مطبعة الغري الحديثة ، النجف ١٩٧٤ .
- ١٨- الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبدالكريم (-٥٤٨هـ)
الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة بيروت .
- ١٩- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (-٣١٠هـ)
تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
طبعة مصورة ، عن طبعة دار المعارف ، مصر .
- ٢٠- عبدالمحسن الأميني النحفي ، الغدير في الكتاب والسنة والأدب ، ط ٣ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٧ .
- ٢١- عبده بدوي ، الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨ .
- ٢٢- فاطمة السويدي ، الاغتراب في الشعر الأموي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩٧ .
- ٢٣- فلهوزن (يوليوس) ، أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام
ترجمة عبدالرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ١٩٧٨ .
- ٢٤- القتال الكلابي ، ديوانه ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦١ .
- ٢٥- ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم (-٢٧٦هـ)
الإمامة والسياسة (تاريخ الخلفاء) ، تحقيق طه محمد الزيني ، مؤسسة الحلبي ، مصر ١٩٦٧ .

٢٦ - فيس النوري . الاعتبار اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً

مجلة عالم الفكر ، مجلد ١ ، العدد الأول . الكويت ١٩٧٩

٢٧ - كاظم الظواهري . المكتبات من صور الشعر السياسي ، دار الصحوة . القاهرة ١٩٨٧ .

٢٨ - الكسندر روشكا ، الإبداع العام والخاص ، ترجمة عسان عبدالحكي أبو فخر مجلة عالم المعرفة

، العدد ١٤٤ ، الكويت ١٩٨٩ .

٢٩ - الكميت ، شرح هاشميات الكميت ، تحقيق داود سلوم ، بوري القيسي عالم الكتب

بيروت ١٩٨٤ .

٣٠ - محمد أبو رهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، دار الفكر العربي ، مصر (د.ت) .

٣١ - محمد أبو الفرج العشي ، النقود العربية الإسلامية ، منشورات وزارة الإعلام قطر ١٩٨٤ .

٣٢ - محسن الأميين ، أعيان الشيعة ، تحقيق حسن الأميين ، دار التعارف للمطبوعات ،

بيروت ١٩٨٣ .

٣٣ - المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين (-٣٤٦هـ)

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد

دار المعرفة ، بيروت (د.ت) .

٣٤ - مصطفى حجازي ، التخلف الاجتماعي ، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور ، معهد

الإنماء العربي ، بيروت ١٩٨٠ .

٣٥ - ابن ميادة ، شعره ، تحقيق محمد نايف الدليمي ، الموصل ، العراق ١٩٧٠ .

٣٦ - نايف محمد معروف . (محقق) ، ديوان الخوارج ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٨٣ .

٣٧ - نصر بن مزاحم المنقري (-٢١٢هـ)

وقعة صفين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط ٣ ، مكتبة الخانجي ، مصر ١٩٨١ .

٣٨ - الهادي حمو ، أضواء على الشيعة ، دار التركي للنشر ، تونس ١٩٨٩ .

٣٩ - يوسف خليف ، حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة

دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ .

الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي . ط ٤ ، دار المعارف ، مصر

